الباقلاني وجهوده في علم البلاغة

م.م ميسون أيوب الحمداني

الملخص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين النبي الأمي الامين محمد صلى الله عليه وعلى اله الطاهرين .
تناولت في هذا البحث شخصية بصرية عاشت جل حياتها من اجل الدفاع عن القرآن الكريم، والرد على كل من حاول التلاعب بالفاظ القران الكريم وتشويه الاعجاز القرآني،وقد اتخذ الباقلاني في دفاعه عن القرآن الكريم اساليب بلاغية متنوعة، وقد تناولت في هذا البحث المباحث البلاغية التي تحدث عنها الباقلاني في كتابه(اعجاز القرآن) ووصف وجوه البلاغة.

وقسمت البحث إلى مبحثين ومحاور: تناولت في المبحث الأول نشأة الباقلاني واهم شيوخه ومعاصريه الذين تتلمذ على ايديهم ونهل العلم منهم ، وكذلك ذكرت أهم تلاميذه الذين اخذوا العلم منه. وذكرت أهم المصنفات التي كتبها الباقلاني.

اما المبحث الثاني فقد انقسم الى اربعة محاور تناولت في المحور الاول جهود الباقلاني في علم البلاغة في كتابه اعجاز القرآن ، والمحور الثاني تناولت فيه موقفه من المحسنات البديعية، وتناولت في المحور الثالث مفهوم النظم عند الباقلاني، وتناولت في المحور الرابع علاقة اللفظ بالمعنى عند الباقلاني.

وقد اسهم كتابه بدور أساسي في تحديد فكرة الأعجاز ، وتطوير مفهومها ومناهج بحثها بصورة أثرت في كل من جاؤوا بعده من علماء البلاغة والدراسات القرانية . كما اسهم كتابه بدور أساسي في نشأة البحث البلاغي وإثرائه.فالوجوه البلاغية عند الباقلاني ليست أصلاً في الأعجاز وأنما تدخل في مقدماته من حيث أنها دعامة في بناء الأسلوب والنظم الرفيع.

Abstract

Addressed in this research visual most of her life to defend the Koran Karim has taken Albaqlani in his defense of the kuran a variety of rhetorical styles. The research was divided tow sections, in the first section dealt with the emergence of the most important and Albaqlani Elders and contem poraries how studied under hands and the most important disciples who took the science of it, the most important works by the Albaqlani authoured .The second section was divided to four axis,addressed the first axis in his rhetoric in his book,trunks of the koranand took up his positionyn the second axis of theen hancements figurative speech, and in third axis dealt with the concept of systems when albaqlani ,and in the fourth axis dealt with term relationship sense when Albaqlani . the book shares a key role in defining the idea of miracle , and the development of the cocept and methods discussed are affected in each of the scientists who came after him from therhetoric and kuranstudies. The book shares a key role in the gensis of rhetoricalresearch and enrichment. The faces rhetorical when Albaqlaniis not already in the bottoms ,but with in the premise in that they support in building a high – style and system.

أسمـه ونشأتـه

هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشهور[١]، ولد في البصرة سنة ٣٢٨هـ ،لأسرة فقيرة ونشأ فيها وأقام في بغداد وتنقل في طلب العلم ، كان على مذهب الشيخ ابي الحسن الاشعري ، ومؤيدا اعتقاده وناصرا طريقته، كان اعرف الناس بعلم الكلام وأحسنهم خاطرا وأجودهم لسانا، واوضحهم بيانا وأصحهم عبارة..[٢]. وكان من كتبه: اعجاز القران، وهداية المرشدين، والاستبصار، وتمهيد الدلائل ، والبيان عن الفرق وغيرها من الكتب[٣] . وتوفي سنة ٤٠٧هـ ببغداد ، وصلى عليه ابنه الحسن ، ودفنه جثمانه في داره بدرب الجوس ، ثم نقل بعد ذلك فدفن في مقبرة باب حران . ورثاه بعض شعراء عصره بقوله:

انظر إلى جبل تمشي الرجال بـه وانظر إلى القبر ما يحوي من الصلف
وانظر إلى صارم الإسلام مغتمدا وانظر إلى درة الإسلام في الصدف*

ذكـاؤه وقـوة لســانه

تتحدث المصادر كثيرا عن ذكاء الباقلاني، وقوة لسنه وحجته، وسرعة بديهته، واقحامه للخصوم..أرسله عضد الدولة في سفارة رسمية الى ملك الروم عام٣٧١هـ فادخلوه وهو في عاصمة الروم على بعض القسس [٤]، فقال الباقلاني للبابا : كيف انت وكيف الاهل والاولاد ؟ فتعجب البابا وقال له : ذكر من ارسلك في كتاب الرسالة، انك لسان الامة ، ومتقدم على علماء الملة.. اما علمت ان المطارنة والرهبان منزهون عن الاهل والاولاد ؟ فاجابه الباقلاني :رأيناكم لا تنزهون الله سبحانه عن الاهل والاولاد. فهل المطارنة عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه ؟ فأراد كبير الروم ان يخزي القاضي الباقلاني ، فقال له : اخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ فاجابه : هما اثنتان قيل فيهما ما قيل ، زوج نبينا ومريم ام المسيح ، فاما زوج نبينا فلم تلد.. واما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها ، وقد برأهما الله مما رميتا به.. فانقطع الرومي ولم يحر جوابا[٥].

وذكرت المصادر ان الباقلاني كان في علمه أوحد زمانه، وانتهت اليه الرياسة، وكان موصوفا بجودة الاستنباط وسرعة الجواب، وكان كثير التطويل في المناظرة.. اكسبته عقليته الفذة منزلة رفيعة ، ومكانة مرموقة على المستوى العلمي والرسمي. وجرى يوما بينه وبين ابي سعيد الهاروني مناظرة، فاكثر القاضي ابو

بكر فيها الكلام ووسع العبارة وزاد في الاسهاب ، ثم التفت الى الحاضرين وقال: اشهدوا علي انه اعاد ما قلت لا غير لم أطالبه بالجواب ، فقال الهاروني : اشهدوا علي انه اعاد كلام نفسه سلمت له ما قال⁽٦⁾.وجهه عضد الدولة سفيرا عنه إلى ملك الروم ، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها.

شيوخه ومعاصـروه

تتلمذ الباقلاني على مجموعة من العلماء كان لهم أكبر الأثر في تغذية عقليته، وصقل موهبته، وتنوع اهتماماته العلمية ، ومنهم :ابن مجاهد الطائي، وعنه اخذ علم الكلام والفقه المالكي واصوله. والشيخ الصالح ابي الحسن الباهلي الذي اخذ عنه علم الاشعري ، ومحمد الابهري المالكي ، والحسين النيسابوري ، وابي بكر بن مالك ، وابي محمد بن ماسي ، والقطيعي وغيرهم من اعلام القرن الرابع الهجري في الدين والشريعة.

كما عاصر الباقلاني مجموعة غير قليلة من العلماء النابهين الذين كان لهم شأنهم في تيار الثقافة الاسلامية ، من هؤلاء: ابراهيم بن محمد الاسفراييني ت٤١٨هـ ، وابا بكر محمد بن الحسن فورك ت٤٠٦هـ ، وغيرهما من الاعلام الذين شهد لهم بالمقدرة العلمية . وقد وصفهم الصاحب ابن عباد بقول(ابن الباقلاني بحر مغرق ، وابن فورك صل مطرق ، والاسفراييني نار تحرق).

تلاميـذه

اما تلاميذه فهم كثيرون .. يكفي ان نعلم ان الرجل كان يبذل علمه في جامع المنصور ببغداد إذ كانت له حلقة كبيرة ، يتحلق فيها مقدرو علمه وطالبو فضله .بيد ان اشهر تلاميذه ما ذكرتهم المصادر القديمة وهم ابو عبدالله الازدي ، وابو طاهر البغدادي اللذان هاجرا الى المغرب العربي _القيروان _ ونشرا علمه هناك.

آثـاره:

أنتجت عقلية الباقلاني مجموعة كثيرة من الكتب الدينية ذات الصبغة الكلامية، والتي تتناول الرد على المخالفين والمتفلسفين يقولون انه صنف ألف ورقة في الدفاع عن الدين .. كل ليلة خمس وثلاثين ورقة ، كل ذلك اظهارا لعلم الرجل ، وابرازاً لمكانته الدينية والعلمية ، بيد ان اشهر كتبه على الاطلاق هو كتابه (اعجاز القران) الذي حدد فيه مفهومه للاعجاز القراني وقد طبع هذا الكتاب مرارا في

القاهرة. ويروى ان له كتاب (في الملل والنحل) وكتابا اخر ذكره صاحب الظنون واسمه (هداية المسترشدين في الكلام) كما ذكرت المصادر له كتاب(الانتصار) (٧) .

جهوده في علـم البلاغـة

كرس الباقلاني جل جهده في كتابه اعجاز القرآن للدفاع عن القران الكريم، امام كيد الكائدين ومزاعم المغرضين ، التي يريد بها اصحابها الغض من شأن كتاب الله العزيز، الآية الكبرى الدالة على صدق النبوة ، كما كرس جهده للرد على اصحاب الفرق الاسلامية ، الذين عللوا الاعجاز القراني بالصرفة وبما فيه من وجوه بلاغية والوان بديعية.

ولا يكون هذا الدفاع مجديا الا اذا اثبت ان القران الكريم هو معجزة النبي (صلى الله عليه واله وسلم) واظهر تفوق الاسلوب القراني والبلاغة القرانية ، على اسلوب العرب وبلاغاتهم ، لذلك عد الباقلاني البحث في اعجاز القران ، والكشف عن اسراره اهم واولى من البحث في العلوم اللغوية او النحوية او الاشتغال بعلم الكلام، لان((اهم ما يجب على دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لاصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبيهم(صلى الله عليه واله وسلم) برهانا ولمعجزته ثبتا وحجة ، ولا سيما ان الجهل ممدود الرواق ، شديد النفاق، مستول على الافاق))(٨).

وقد كانت قضية التحدي مثار اهتمام الباقلاني وهو بصدد الدفاع عن القران الكريم لانه اذا وقع التحدي وثبت العجز فان ذلك دليل قاطع على صحة النبوة ، وان القران كتاب الله المنزل على رسوله(صلى الله عليه واله وسلم) ، وان معجزته الخالدة التي تحدى بها الانس والجن . وقد ثبت ان الله تعالى قد تحدى العرب ان يأتوا بمثل القران(٩) في علو اسلوبه وبالغ حكمته فعجزوا، ثم تحداهم ان يأتوا بعشر سور مماثلة له في النظم وما استطاعوا، ثم ردهم من عشر سور إلى سورة واحدة من مثله ، تماثله في لفظه ونظمه وفصاحته واسلوبه مبالغة في التحدي وتصغيرا للشأن ، بالنزول عن التحدي من مثل القران كله إلى سورة واحدة ، بل آية واحدة فعجزوا وما استطاعوا ذلك، ليسجل القران في نهاية المطاف هزيمتهم في باب البلاغة والفصاحة فقال تعالى في سورة الاسراء((قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)).

واذا ثبت عجز العرب على عهد النبي(صلى الله عليه واله وسلم) عن معارضة القران، وعن الاتيان بمثله فغيرهم اعجز لقصورهم عن مرتبة العرب

يومئذ في سلامة الذوق، وفي القدرة على صياغة الكلام نظما ونثرا، ولان ((فصاحة اولئك في وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم ، واحسن احوالهم ان يقاربوهم او يساووهم ، فاما ان يتقدموهم او يسبقوهم فلا))(١٠).

اما غير العرب فلا يمكنهم معرفة اعجاز القران إلاّبان يعلموا عجز العرب عن الاتيان بمثله. فهل مع هذا التحدي المستمر المثير يصدق منصف ان القوم لم تكن لديهم رغبة في المعارضة ، وان الله صرف عنهم دواعيها مع قدرتهم عليها ؟ ان القول بالصرفة ضرب من العبث ينبغي على المتكلمين عامة ، والمعتزلة خاصة، ان ينزهوا عنها انفسهم وعقولهم ، اذ كيف يطلب الله من العرب الفصحاء الاتيان بمثل القران او بشئ منه تحديا لقدرتهم البيانية ، في حين يسلبهم القدرة على المعارضة والاتيان بمثل القران . فالعكس هو الصحيح . ان القران الكريم اثار فيهم تلك الدواعي ، وهيج نفوسهم لها ، ليبذلوا أقصى ما عندهم على الاتيان بمثله فلم يستطيعوا ، ولو كانت((المعارضة ممكنة وانما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا ، وانما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه))(١١).

فحقيقة اعجاز القران عند الباقلاني انه لا يقدر عليه العباد لانهم لو قدروا عليه لبطل الاعجاز.

لقد اهتم الباقلاني في كتابه اعجاز القران بقضايا الاعجاز القراني ، وهو من انضج الكتب التي الفت حول الاعجاز ، الا انه في الوقت ذاته من المصادر البلاغية الاساسية،التي اسهمت في تحديد مسار البلاغة. ان القضايا البلاغية ومباحثها المتعددة، تختلط في الكتاب بالقضايا الكلامية اختلاطا متوازنا ، فتنفرد القضايا البلاغية ببعض الفصول، وكذلك في الفصل الطويل الذي خصصه للحديث عن البديع من الكلام ، وذلك في الفصل الاخير عن (وصف وجوه البلاغة) الذي يتتبع فيه وجوه البلاغة العشرة ، التي سبق ان اوردها الرماني في كتابه (النكت في اعجاز القران) وتنفرد القضايا الكلامية ببعض فصول الكلام ، كذلك الفصل الذي جعله في اول الكتاب عن: ان نبوة النبي(صلى الله عليه واله وسلم) معجزتها القران ، والبعض الثالث من فصول الكتاب شركة بين القضايا البلاغية والقضايا الكلامية ، كالفصل الذي كتبه عن(جملة وجوه اعجاز القران)حيث يحصر الاعجاز القراني في هذا الفصل في مجموعة وجوه ، بعضها كلامي ، وبعضها بلاغي. والذي يهمنا المباحث البلاغية في كتابه (اعجاز القران) ومدى تمثلها لطبيعة عصره وان نتعرف على

اسهاماته في تطوير البحث البلاغي من ناحية اخرى ، ونظرة فاحصة في الفصل الذي عقده الباقلاني في (جملة وجوه اعجاز القران) نجد انه حدد وجوه الاعجاز في ثلاثة وجوه اساسية ، ينقلها من اساتذته الاشاعرة.

أولها:اخباره الصادق عن الغيوب، الامر الذي يخرج عن طوق البشر واستطاعتهم .

ثانيها : اخباره عن قصص الماضيين وسير الامم الخالية منذ عهد آدم(عليه السلام) ، وحتى بعثة النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وعدم معرفته شيئا من كتب المتقدمين وقصصهم واخبارهم .

ثالثها : نظمه البديع ، وتأليفه العجيب ، وبلاغته المتناهية التي يعجز البشر عن محاكاتها.

بيد ان الباقلاني لا يقف طويلا امام الوجهين الاولين ، بل يوجه جل عنايته الى الوجه الثالث(البلاغي) حيث يحاول بطريقته الخاصة ان يثبت تميز الاسلوب القرآني، والبلاغة القرانية على اسلوب البشر وبلاغتهم، وينهج في ذلك نهجا جديدا مغايرا للمناهج التي انتهجها السابقون في اثبات الاعجاز البلاغي للقران. فهو يرفض فكرة اثبات الاعجاز البلاغي للقران عن طريق ما فيه من بديع ، وذلك لانه على حد تعبيره :((لا سبيل الى معرفة اعجاز القران من البديع ، الذي أدعوه في الشعر ووصفوه فيه وذلك ان هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة وله طريق يسلك ووجه يقصد وسلم يرتقى فيه اليه))(١٢). أي ان البديع ببساطة لا يخرج عن طوق البشر، فلا يعجز أي انسان ان يأتي في كلامه بتشبيه او استعارة او طباق، لان البديع في حد ذاته غير معجز، وانما المعجز هو الصورة الباهرة التي وجد عليها في القران ، واتساقه مع سائر النظم القراني اتساقا عجيبا ورائعا، بينما نجد ان الشعر والنثر البشري يحتوي على التشبيه البليغ او الاستعارة الجيدة ولكن يوجد الى جوارها التعبير الساقط ، واللفظ المبتذل، وهذا ما اجهد الباقلاني نفسه طوال الكتاب لاثباته والباقلاني يستخدم مصطلح البديع بمفهومه العام الشامل الذي كان متعارفا عليه في عصره ، فالبديع عنده يشمل كل المباحث والفنون البلاغية ، أي انه يضم مباحث علوم البلاغة الثلاث - التي لم تكن في عصره - قد تحددت وتمايزت واستقلت ، وهي البيان ، والمعاني ، والبديع ، فهو مثلا يرى ان الاستعارة والتشبيه من البديع ، وهن كما نعلم اصبحا - فيما بعد - من اهم مباحث علم البيان وهو يعد المساواة وبعض صور الاطناب من البديع ، ونحن نعلم انهما اصبحا من موضوعات علم المعاني .

وهو يعد ان مجموعة من الصور البديعية التي استقرت فيما بعد تحت عنوان البديع، مثل المطابقة والتجنيس، ورد الاعجاز على الصدور وغيرها كما يرفض الباقلاني فكرة التوصل الى اثبات اعجاز القران عن طريق ما فيه من بديع ، فانه يرفض أيضا فكرة التوصل إلى اثبات اعجاز القران عن طريق اقسام البلاغة العشرة التي حددها الرماني ،إذ عقد فصلا بعنوان (فصل في وجوه البلاغة) لخص فيه اقوال الرماني الذي يشير اليه ـ وان كان لا يصرح بأسمه ـ حيث يقول: ذكر بعض اهل الادب والكلام ان البلاغة على عشرة اقسام وبعد ان ينتهي من تلخيص آراء الرماني حول هذه المباحث يشير الى ان البعض يرى انه من الممكن التوصل إلى: اعجاز القران من هذه الوجوه ، بيد انه يرفض هذا الرأي ، ثم يقرر ان هذه الوجوه العشر تنقسم إلى قسمين :

١- قسم يمكن الوقوع عليه والتعمل له ، ويدرك بالتعلم ، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة أعجاز القران به ،اما القسم الثاني فهو:

٢ـ ما لا سبيل اليه بالتعمل من البلاغات ، فذلك هو الذي يدل على اعجازه ويضرب لذلك مثلا ، بأننا لو قلنا: بان ما في القران من تشبيه معجز في ذاته ، فسوف يعرض علينا بما في الاشعار من تشبيهات رائعة ، ويمثل لذلك بما في شعر ابن المعتز من تشبيه بديع يشبه السحر.

وينتهي الباقلاني من ذلك ، إلى ان مثل هذه الوجوه البلاغية ليست معجزة في حد ذاتها، وانما المعجز في هذه الوجوه هو :

أولا:حسنها البالغ وسموها. وثانيها: ارتباطها واتساقها مع بقية الكلام، على نحو بالغ الروعة والتكامل، بحيث لا يحس القارئ بأي قدر من التفاوت البلاغي، في هذا الكلام الرباني، الذي يضارع بعضه بعضا في البلاغة والفصاحة، والباقلاني يحصر الوجه البلاغي للاعجاز القراني (أي : بديع نظمه) في وجوه عشرة ، يرجع بعضها إلى القران في جملته ، وبعضها يرجع إلى بعض اساليبه ، وبعضها يرجع إلى مفرداته ، وبعضها يرجع إلى حروفه، فمما يرجع إلى جملته ، كونه خارجا عن المألوف من كلام البشر، والمعروف من تنظيم خطابهم، فليس هو بالشعر ولا بالنثر، وليس هو بالسجع...الى آخر ما هو معروف للبشر من أجناس الكلام ، وهو يبذل جهدا كبيرا في محاولة اثبات مخالفة القران في جملته لجنس الكلام البشري . ومما يرجع الى جملته أيضا انه لم يعهد للعرب كلام يشتمل على ما في القران من فصاحة وبلاغة ، ومعان في مثل طول القران ، وانما عرفت لهم مقطوعات نثرية قصيرة، وقصائد شعرية معدودة لم تخل من نقص وعيب، ومما يرجع إلى جملته كذلك:

انه على تعدد اغراضه ومراميه ومن قصص ومواعظ واحكام ، وترغيب وترهيب، لا يتفاوت في بلاغته ، فهو دائما على درجة واحدة من البلاغة السامية ، بينما نجد ان الشعراء والادباء المجيدين ، انما يجيدون في بعض الاغراض دون سواها، فالذي يجيد في المدح لا يجيد في الهجاء مثلا ، والذي يبرع في الخطب لا يبرع في الحكم والامثال، ونحو ذلك .

وأما ما يرجع الى اساليبه ، فيذكر من ذلك ان القران الكريم ، قد اشتمل على كل الاساليب البلاغية التي تنبني عليها اجناس الكلام البشري ، من ايجاز واطناب ، ومجاز وحقيقة، واستعارة وتصريح ، كل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم، في الفصاحة والابداع والبلاغة ويذكر من ذلك ايضا ان بلاغته لا تتفاوت في الانتقال من اسلوب إلى اسلوب ، ولا من طريقة من طرق القول إلى طريقة اخرى ، ويذكر من ذلك اننا اذا اخذنا آية قرانية ووضعناها في أي كلام ، نظما كان أم نثرا، فأنها تكون هي واسطة العقد في هذا الكلام (كالدرة التي ترى في عقد الخرز) على حد تعبيره .

وأما ما يرجع الى مفرداته ، فمن ذلك انه استعمل بعض المفردات في معان ومدلولات جديدة ، لم تكن مالوفة في البيئة العربية قبل الإسلام . ومن ذلك أيضا بعده عن المفردات المستكرهة الثقيلة على السمع .

واما ما يرجع الى حروفه ، فهو ان في القران ثمان وعشرين سورة افتتحت بحروف مقطعة من الحروف العربية الثمانية والعشرين، وقد اشتملت هذه السور على أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء ، أي نصف حروف الهجاء ، وهذه الحروف الاربعة عشر اشتملت على نصف كل قسم من الاقسام التي انقسمت اليها حروف العربية ، حيث اشتملت على نصف حروف الهمس (أ) ونصف حروف الجهر(ب)، كما اشتملت على نصف حروف الحلق(ج)، ونصف حروف الاطباق(د)، ونصف الحروف الشديدة(هـ)(الانفجارية) (هـ).

ويرى الباقلاني انه ما من سورة افتتحت بتلك الحروف المقطعة(١٣)، الا وتدل على معجزة القرآن، بل ان كثيرا من السور اذا تؤمل – فهو من اوله الى آخره – مبني على لزوم حجة القران والتنبيه على وجه معجزته. ويستشهد على ذلك بسورة المؤمن(١٤).

وهذا التنظيم والتقسيم البديع ،هو بدون شك وجه من وجوه الاعجاز الناصعة في القران الكريم. ومن الواضح ان القاسم المشترك بين هذه الوجوه هو مخالفة البيان القراني لكلام البشر، وهذه هي القضية الاساسية التي شغل(نفسه على امتداد

صفحات كتابه) وهو في سبيل اثبات هذه القضية يعمل إلى تحليل بعض النماذج الادبية الرائعة، التي اتفق الجميع على بلاغتها ، ليبين ما فيها من عيوب تعبيرية ، ويحلل في مقابل ذلك آيات وسورا من القران، يبين ما فيها من بلاغة لا تتفاوت ولا تهبط وفي سبيل تفضيل الاسلوب القراني على الاسلوب البشري ارتكب الباقلاني الوانا من التعسف والتكلف ، واجهد نفسه في تمحل العيوب في نماذج الشعر التي اختارها، ولكنه حتى في تعسفه وتحامله كان يصدر عن ذوق نقدي بارع ، هو الذي جعله يجرؤ على هذه المهمة الصعبة ، فقد كان من بين النماذج التي اختارها ، وبيان ما فيها من عيوب(معلقة امرئ القيس ، وقصيدة البحتري المشهورة). هذا وقد تناثرت خلال الكتاب مجموعة من الاراء البلاغية والنقدية الدقيقة ، من مثل نظرته إلى ضرورة وحدة العمل الادبي، وموقفه من قضية المحسنات البديعية ، فالباقلاني على قدر من النضج والتبلور، فيما يتصل بموضوع وحدة العمل الادبي ، وقد تجلى هذا الموقف في اكثر من موضع في الكتاب ، وبأكثر من صورة .

موقف الباقلاني من المحسنات البديعية

ان موقف الباقلاني من قضية المحسنات البديعية لم يكن اقل نضجا وتفتحا من موقفه من قضية وحدة العمل الفني فهو لا يفتأ يلح على انتقاد هذه المحسنات اذا لم يقتضها المعنى ، ويستلزمها السياق الفني، أي انه يعد هذه المحسنات ادوات فنية تعبيرية ، تكتسب قيمتها الفنية من الدور التعبيري الذي تؤديه ، فاذا لم تؤد دورا في العمل الادبي كانت عيبا من العيوب ، وليست مزية من المزايا (١٥).

وحين اعترض الباقلاني تفسير الرماني لاعجاز القران بما تضمنه من وجوه البلاغة وصور البديع ، اشار إلى ناحية بلاغة النظم التي تعتمد على وحدة النص والالتحام الموجود بين عناصر النص ، وهذا يعني ان الباقلاني كان يهدف الى دراسة قضية الاعجاز القراني بمنهج جديد ، فيه مباينة واضحة لما كان سائدا عند الدارسين في عصره وخاصة المعتزلة، وذلك بالاستفادة من اراء ومبادئ المذهب الاشعري ،يقول الباقلاني: (الذي ذهب اليه عامة اصحابنا _ وهو قول ابي الحسن الاشعري في كتبه _ ان اقل ما يعجز عنه من القران السورة قصيرة كانت ام طويلة، او ما كان بقدرها ، قال فاذا كانت الاية بقدر حروف سورة وان كانت سورة الكوثر فذلك معجز)(١٦). فالاعجاز لابد ان يتحقق في كل آية من ايات القران طالت ام قصرت ، لان البلاغة لا تتبين باقل من السورة او ما كان بقدرها .اما هذه الوجوه البلاغية التي ذكرها الرماني فلا اعتبار لها في الحكم على اعجاز القران او عدمه ،

لانها توجد في بعض الايات دون بعض، ثم اننا لو سلمنا بان اعجاز القران يظهر بهذه الوجوه ، فان ذلك يعني مساواة كلام رب العالمين بكلام البشر، لانه يجوز ان يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة تباين جميع ديوانه في البلاغة ، ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه، ولا يعرف سبب ذلك البيت ولا تلك القطعة في التفصيل ، ولو اراد ان ياتي بمثل ذلك او يجعل جميع كلامه من ذلك النظم لم يجد الى ذلك سبيلا(١٧).

وهذا ما يرفضه الباقلاني، لان اسلوب القران مساير لباقي كلامهم، وله اسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن اساليب الكلام المعتاد(١٨). لذلك وجدناه منشغلا بالبحث عن نظرية جديدة يتفاضل على اساسها الكلام ،وتتحقق في الايات جميعها، وتنطبق على القدر المعجز في المذهب الاشعري ، فاختار فكرة النظم. والحقيقة ان فكرة النظم عرفت قبل الباقلاني وذكرها بعض علماء الاعجاز قبله، فقد الف الجاحظ

في القرن الثالث الهجري كتابا اسماه (نظم القران)، لا يستبعد ان يكون ضمنه كثيرا من لمحات القران المعجز عن طريق النظم ، وبسبب ضياعه لم يبق لنا من ذلك الكتاب الا الاشارات المبثوثة بين كتبه المتبقية .

والجاحظ يرى ان اعجاز القران في نظمه وتأليفه وفي ذلك يقول: وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على انه صدق ، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به(١٩) . ويقول في موضع اخر من كتابه بعد ان تحدث عن صرف الله سبحانه وتعالى للبشر عن اشياء كانت في مقدورهم ومثل ذلك ما رفع من اوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقران بعد ان تحداهم الرسول بنظمه (٢٠) .

وكذلك الشان مع الخطابي حين عرف الاعجاز بقوله واعلم ان القران انما صار معجزا لانه جاء بأفصح الالفاظ في احسن نظوم التأليف مضمنا اصح المعاني(٢١) فاعتبر النظم احد الاركان الثلاثة التي يقوم بها الاعجاز الى جانب الالفاظ والمعاني، ولم يجعله الركن الوحيد للاعجاز ، وذلك لان الكلام بوجه عام يقوم على اشياء ثلاث: لفظ حامل، ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم . واذا تأملنا القران الكريم وجدنا هذه الامور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حيث لا ترى شيئا من الالفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من الفاظه ، ولا ترى نظما احسن تأليفا واشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ، واما المعاني فانه لا يخفى على ذي عقل انها هي التي

تشهد لها العقول بالتقدم في ابوابها ، والترقي الى أعلى درجات الفضل من نعومتها وصفاتها(٢٢) .

ولا شك ان الباقلاني قد افاد من هذه الدراسات القرانية التي ارتضت النظم وجها للاعجاز القراني ، واقتنع بهذا الراي اقتناعا كاملا ، فاعتبر ان اعجاز القران في نظمه الخارج عن المعهود من كلام العرب . يقول الباقلاني والوجه الثالث انه بديع النظم ،عجيب التاليف ، متناه في البلاغة الى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه(٢٣).

ان من يمعن النظر في كلام الجاحظ والخطابي عن النظم القراني يجده كلاما عاما ومجملا.وللباقلاني رأي في تحديد وجهة نظره من النظم وقبل الخوض في رأي الباقلاني علينا تحديد معنى النظم ومفهومه ، فالنظم في اللغة: التأليف ونظمه نظما ونظاما ونظمه فانتظم وتنظم ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك ... وكل شئ قرنته بآخر او ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته (٢٤). ويطلق اصطلاحا على نظم الكلام ويستوعب كل تلك المعاني ، فهو عملية تأليف الكلام على نمط خاص وفق قواعد اللغة والنحو وغيرها.يقول الجرجاني :النظم في اللغة جمع اللؤلؤ في السلك ، وفي الاصطلاح تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات، على حسب ما يقتضيه العقل ، وقيل الالفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل(٢٥). من خلال هذين التعريفين تتبين الصلة الوثيقة بين المعنى اللغوي للنظم والمعنى الاصطلاحي . فالنظم هو الضم والجمع ، وهو يشبه الخيط الجامع للؤلؤ، وفي مجال الكلام هو مادة اللحام الجامعة للالفاظ مع المعاني داخل الاية او العبارة. واذا كانت

نظرية النظم تقوم على ثنائية اللفظ والمعنى والالتحام الموجود بينهما، وان اعجاز القران في معانيه وفي ترتيب الفاظه بطريقة مخصوصة ، وتركيبها بما يتناسب وحال الخطاب موضوعة ، وان مزية النظم في معانيه دون الفاظه، اذ ليس الغرض بنظم الكلم ان توالت الفاظها في النطق، بل ان تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل (٢٦) .

مفهوم النظم عند الباقلاني

لاشك ان الباقلاني انطلق من مبادئ الاشاعرة في تصوره لنظرية النظم، وخاصة عقيدتهم في كلام الله، فللاشاعرة موقف خاص من كلام الله ، فهو مركب من الكلام القديم القائم بذاته تعالى ،ومن الحروف المنظومة والاصوات المقطعة التي هي عبارة عن كلام الله ودلالات عليه وامارات له. يقول الباقلاني : فالكلام الحقيقي

هو المعنى الموجود في النفس، لكن جعل عليه امارات تدل عليه ، فتارة تكون قولا بلسان على حكم اهل ذلك اللسان وما اصطلحوا عليه وجرى عرفهم به وجعل لغة لهم... وقد يدل على الكلام القائم بالنفس الخطوط المصطلح عليها بين كل اهل خط ، فيقوم الخط في الدلالة مقام النطق باللسان (٢٧)، وليس نظمها اكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومترتبة في الوجود ، وليس لها نظم سواها ، وهو كتتابع الحركات إلى السماء، ووجود بعضها قبل بعض ، ووجود بعضها بعد بعض (٢٨).

فالنظم عند الباقلاني هو نظم واقع في المعاني وترتيب للكلام النفسي او المعاني النفسية، لذلك وجه العلماء عنايتهم للمعاني بحكم سبقها واصالتها . اما الالفاظ فهي خادمة للمعاني وتابعة لها ، وتتنزل في النطق بحسب ترتيب معانيها في النفس، فمزية النظم في معانيه دون الفاظه .يقول الباقلاني فليس الاعجاز في نفس الحروف، وانما هو في نظمها واحكام رصفها، وكونها على وزن ما اتى به النبي (صلى الله عليه واله وسلم) فالنظم عند الباقلاني هو المادة العضوية الرابطة بين الالفاظ والمعاني، فهو يفهم النظم على انه تأليف العبارة وبناء النص بناءا تراعى فيه العلاقات ، وملاءمتها لمواضعها التي وضعت فيه ، فتحدث عن التقديم والتأخير وتتابع الحركات ، لكنه لم يستطع ان يبين عن شئ من هذا المعنى ، او يقدم مفهوما واضحا له، فربطه بالاسلوب الذي صار به القران معجزا فقال: ونظم القران جنس متميز ،واسلوب متخصص، وقبيل عند النظير متخاص(٢٩)، ويقول ايضا: وذلك ان نظم القران على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله اسلوب يختص به ، وتميز في تصرفه عن اساليب الكلام المعتاد(٣٠) .

ان هذا الوصف المجمل لمفهوم النظم غير كافٍ لانه لا يحدد ما يقصده بالنظم الذي صار به القران معجزا تحديدا دقيقا واضحا ، ومن شان هذا الوصف المجمل ان يحجب عن الناظر الجهة التي تعرض منها المزية وفهمها على وجهها، وهو العيب الذي وقع فيه الباقلاني حين ربط اعجاز القران بنظمه من دون ان يفسر هذا النظم ، ويعطيه مضمونا ملموسا يتبين فيه اثره في بلاغة النص ، اذ لا يكفي ان تقول انه خصوصية في كيفية النظم وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها مع بعض، حتى تصفو تلك الخصوصية وتبينوها وتذكروا لها امثلة(٣١).ورغم كل هذه الملاحظات ، فاننا لا يمكننا التقليل من جهود الباقلاني ، فبتفسيره للنظم على هذا الوجه، يكاد يقترب من مفهوم عبدالقاهر له فقد انضبطت دلالته لدى الباقلاني فيما

يمكن ان يوصف بالعلاقات ،وطرق ضم الكلمات بعضها الى بعض دون ان يتسنى له تحديد اساس عميق للضم(٣٢) .

ولعل غياب الاساس اللغوي او النحوي عن تصور الباقلاني جعلت جهوده لا ترقى الى تأسيس نظرية في النظم تقوم على اسس نحوية وترتكز على اصول الفقه كلام على يديه وتجددت تحديدا واضحا حيث يقول : واعلم انك اذا رجعت الى نفسك، علمت علما لا يعترضه الشك ان لا نظم في الكلم ، ولا ترتيب حتى يعلق بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك ، هذا ما لا يجهله عاقل ، ولا يخفى على احد من الناس ...واذا كان لا يكون في الكلام نظم ولا ترتيب ، الا بان يصنع بها هذا الصنيع ونحوه، وكان ذلك كله مما لا يرجع منه الى اللفظ شئ ، ومما لا يتصور ان يكون فيه ومن صفته ،بان بذلك الامر على ما قلناه بان اللفظ تبع للمعنى في النظم ، وان الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس(٣٣).

فمفهوم الجرجاني للنظام يتمثل في انه تعليق للكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، وتوخي معاني النحو بين الكلام حسب الاغراض التي يصاغ لها الكلام وان ميزة النظم البلاغية تكمن في المعاني التي تحدثها الالفاظ اذا ألفت على ضرب خاص من التأليف ، ورتبت ترتيبا معلوما ، بحيث يقع ترتيب الالفاظ في الكلام على حسب ترتيب معانيها في النفس. ان المشكلة الحقيقية عند الباقلاني على وجه العموم تكمن في هذه الثنائية بين الكلام النفسي القائم بذاته تعالى وهو الكلام الحقيقي ، وبين العبارة عنه من خلال الحروف المنظومة والاصوات المقطعة. فاذا كان اعجاز النص في نظمه وتأليفه ، فما هو النظم أو التأليف الذي وقع به الاعجاز؟ اهو الحروف المنظومة ؟ ام الكلام القائم بالذات ام غير ذلك؟ معجزات في النظم والتأليف .يقول الباقلاني : لسنا نقول بان الحروف قديمة ، فكيف يصح التركيب على الفاسد، ولا نقول ايضا ان وجه الاعجاز في نظم القران من اجل انه حكاية عن كلام الله ، لانه لو كان كذلك لكانت التوراة والانجيل وغيرهما من كتب الله وتأليفه من حيث كونه عبارة عن الكلام القديم ، يعني ان التوراة والانجيل معجزات لانها عبارة عن الكلام القديم ، وقد علمنا ان معجزة هذه الكتب السماوية في غير النظم والتأليف، وان معجزتها بأمر خارج عنها، فمعجزة موسى عليه السلام في العصا واليد البيضاء ،ومعجزة عيسى عليه السلام في إبراء الاكمه واحياء الموتى بإذن الله، ومن ثم لم يصح القول بان القران الكريم معجز من حيث كونه عبارة عن الكلام القديم .

لذلك انشغل الباقلاني بمحاولة التوفيق بين الاعتقاد بان القران غير مخلوق وبين الاعتقاد بانه معجز، فالقران قديم قدم ذاته تعالى واعجازه واقع في نظم

الحروف التي هي دلالات وعبارات عن كلامه، والى مثل هذا الكلام وقع التحدي، لانه الكلام الذي يقع فيه التفاضل والتفاوت. اما الكلام القديم فلا يصح فيه التحدي لانه لا يقدر عليه البشر. يقول الباقلاني:الذي تحداهم به ،ان ياتوا بمثل الحروف التي هي نظم القران منظومة كنظمها متتابعة كتتابعها مطردة كاطرادها، ولم يتحداهم الى ان ياتوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له، وان كان كذلك فالتحدي واقع الى ان ياتوا بمثل الحروف المنظومة التي هي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها وتاليفها، وهي حكاية لكلامه ودلالات عليه وامارات له(٣٤).

يكون الباقلاني بهذا الكلام متفقا مع المعتزلة في تصورهم للاعجاز، فهو عندهم في الكلام المؤلف من الاصوات ، وفي الصورة السمعية للكلام ، ولذلك فان انتصار الباقلاني للمعاني على حساب الالفاظ يعد باهتا في ثنايا كلامه ، اللهم بعض العبارات مثل قوله :انه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع ،والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذاالقدر(٣٥).

ولا نذهب بعيدا اذا قلنا ان الباقلاني قد استقى كثيرا من آرائه في الاعجاز من تلك الاشارات التي وردت على لسان بعض علماء المعتزلة ، فهو لا يبعد كثيرا في مفهومه للاعجاز عن رأي الجاحظ والرماني فقد رأينا ان من وجوه الاعجاز البلاغي ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله اسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن اساليب الكلام المعتاد (٣٦) .

وهذا الحكم يتفق مع رأي الجاحظ في الاعجاز ، فالمشهور عنه انه كان يرى الاعجاز في نظم القران وتأليفه، وان نظمه يخالف جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفى على مخارج الاشعار والاسجاع ، وان نظمه من اعظم البراهين ، وتأليفه من اكبر الحجج (٣٧).

ونقرأ في رسالة الرماني رأيه في اعجاز القران حيث يقول: اما البلاغة فهي على ثلاث طبقات : منها ما هو في اعلى طبقة ، ومنها ما هو في ادنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين اعلى طبقة وادنى طبقة . فما كان في اعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القران، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن ،كبلاغة البلغاء من الناس(٣٨).

ويقول الباقلاني عن القران واصفا اياه في كتابه اعجاز القران: انه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه(٣٩) .

علاقة اللفظ بالمعنى عند الباقلاني

تناول الباقلاني ثنائية اللفظ والمعنى ودورها في صياغة الكلام في ضوء نظرية النظم التي تعتمد على وحدة النص ، والالتحام الموجود بين أجزائه. ويتوخى الباقلاني بالنظم معنيين اثنين هما:

المعنى الاول : الاسلوب والطريقة في التعبير ، فنظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله اسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن اساليب الكلام المعتاد... وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه(٤٠) ، وليس نظمها اكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومترتبة في الوجود ، وليس لها نظم سواها،وهو كتتابع الحركات الى السماء، ووجود بعضها قبل بعض، ووجود بعضها بعد بعض(٤١).

المعنى الثاني: انه يريد بالنظم التأليف ، وضم الكلام بعضه الى بعض على طريقة مخصوصة حيث يقول فان قالوا كيف يكون القرآن معجزا، وهو غير خارج عن حروف المعجم التي يتكلم بها الخلق من اهل الفصاحة والعي واللكنة قيل لهم ، ليس الاعجاز في نفس الحروف ، وانما هو في نظمها ، واحكام رصفها ، وكونها على وزن ما اتى به النبي (صلى الله عليه واله وسلم) .

اننا نجد الباقلاني ملتزما في تصوره للعلاقة القائمة بين الالفاظ والمعاني، ولوظيفة الالفاظ وقيمتها، وللنظم واعجاز القران، بعقيدة الاشاعرة في كلام الله تعالى، تلك العقيدة التي قررت ان المدلول القراني صفة ازلية قديمة ودلالته حادثة، وتلك الدلالات تابعة في نظمها وترتيبها لذلك المدلول القديم، والنظم القراني - حسب هذه العقيدة- هو نظم واقع في المدلول، هو ترتيب المعاني في النفس، وترتيب الالفاظ في النطق تابع لترتيب المعاني في النفس(٤٢).غير ان ما يستغرب له ، ان الباقلاني لم يتأثر كثيرا بهذه العقيدة، ولم يكن متحمسا للدفاع عنها كما كان متحمسا في نفي السجع والشعر عن القران ، وربما لم يكن الباقلاني - كما قال الدكتور أحمد ابو زيد – قادرا وهو في مرحلة التأسيس والتمهيد وضع نظريته في النظم والاعجاز التي تستمد اصولها من المذهب الاشعري.

ويبدو ان الباقلاني في كتابه اعجاز القران ، يرى ان المهارة في نظم الكلام وفي تأليفه تعود الى الالفاظ والمعاني على حد سواء، والى توافقهما وانسجامهما ، فلا نص صريح في كتابه يدلنا على انه يفضل المعنى او يفضل اللفظ فإذا كان الكلام موضوعا للابانة عن الاغراض القائمة في النفوس وجب ان يتخير من اللفظ ما كان

اقرب للدلالة على المراد واوضح في للابانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع ولا مستنكر المورد على النفس، حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الافهام ،او يمتنع بتعويض معناه عن الابانة(٤٣).

والذي نفهمه من هذا الكلام، ان الباقلاني يهتم بالالفاظ بقدر اهتمامه بالمعاني، فكلاهما من عناصر الاسلوب ، تجمعهما وحدة عضوية داخل النظم .من هنا يأتي الحاح الباقلاني على مراعاة التوافق بين الالفاظ ومعانيها ، فتأتي المعاني معبرا عنها بالفاظ تماثلها في الحسن،وتساويها في القدر والجودة ، ويراعى فيها مقتضى الحال، يقول الباقلاني: فاذا برع اللفظ في المعنى البارع على الطف واعجب من ان يوجد اللفظ البارع في المعنى المدلول المتكرر، والامر المتقرر المتصور، ثم انضاف الى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدئ تأسيسه ، ويراد تحقيقه بأن التفاضل في البراعة والفصاحة ، ثم اذا وجدت الالفاظ وفق المعاني، والمعاني وفقها، لا يفضل احدهما على الآخر، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم (٤٤) .

واضح ان الباقلاني رغم اشعريته ، لم يستطع التخلص من سيطرة الفكر الجاحظي على الثقافة العربية الاسلامية ، لانه يردد ما قاله الجاحظ من ضرورة المناسبة بين الالفاظ والمعاني ، مع مراعاة مقتضى الحال اذ يقول: وكما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا ،فكذلك لا ينبغي ان يكون غريبا وحشيا ، الا ان يكون المتكلم بدويا اعرابيا ، فان الوحشي من الكلام ، يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي. وكلام الناس في طبقات ، كما ان الناس انفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل، وكله عربي ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا(٤٥) .

والحقيقة ان الباقلاني قد تأثر كثيرا بالجاحظ وبالمعتزلة عموما في تصوره للاعجاز القراني، وثنائية اللفظ والمعنى ، فعلى الرغم انه يصوغ للنظم مفهوما يكاد يترادف مع مفهوم العلاقات، الا انه يظل مشدودا في تصوره للنظم القراني بآراء الجاحظ. وفكرة النظم عند الجاحظ فكرة لفظية تعتمد على حسن الصياغة اللفظية، وكمال التركيب ودقة تأليف الالفاظ وجمال نظمها .ولا عجب فقد كان شغوفا بجودة اللفظ وحسنه وبهاء رونقه حتى قدمه على المعنى في عباراته المشهورة ((المعاني مطروحة في الطريق)). ولا يبعد تصور الباقلاني للاعجاز عن رأي الجاحظ ، فالقران معجز لانه جمع وجوه الحسن وأسبابه ، من تعديل النظم وسلامته وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ، ووقوعه في النفس موقع القبول ، يقول :

فالقران أعلى منازل البيان ، واعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن واسبابه وطرقه وابوابه من تعديل النظم وسلامته، وحسن بهجته ، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان، ووقعه في النفس موقع القبول ، وتصوره تصور المشاهد ، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التاليف ، مما لا ينحصر حسنا وبهجة وسناء ورفعة (٤٦).

وقضية التلاؤم بين الالفاظ والمعاني شرط قد سبق اليه المعتزلة ، واعتبروه شرطا من شروط البلاغة ، بل لقد عده الرماني وجها من وجوه الاعجاز القراني . فمن اراد ان يكون كلامه بليغا ، فعليه ان يختار من الالفاظ أخفها على اللسان وأعذبها في الاسماع ، فاذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى ،حاز مرتبة البلاغة والبيان . والحاح الباقلاني على ضرورة تحقيق التلاؤم بين اللفظ والمعنى، وتحقيق البراعة في كليهما دليل قاطع على ايمان الباقلاني بأن المزية في الكلام تعود الى الصياغة والنظم. يقول: والتلاؤم حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ ووقع المعنى في القلب ، وذلك كالخط الحسن والبيان الشافي ، والمتنافر كالخط القبيح ، فاذا انضاف الى التلاؤم وحسن البيان وصحة البرهان في أعلى الطبقات ، ظهر الاعجاز لمن كان جيد الطباع وبصيرا بجواهر الكلام(٤٧) .

فالباقلاني من انصار الصياغة اللفظية التي لا تعطي للفظ مزية على المعنى، ولا للمعنى مزية على اللفظ، فكلاهما عنصر من عناصر الاسلوب، واي فصل بينهما يعني فصل للجسم عن الروح، والروح عن الجسم ، وذلك لان جمال الالفاظ في تعلقها بالمعنى، وحسن المعاني في وجودها في تركيب (٤٨).ويتبدى كمال الائتلاف في علاقة اللفظ بمعناه في نظم القرآن المعجز للانس والجن، فالنظم هو الصورة التي يرى فيها الاعجاز، وهو مادة اللحام الجامعة للالفاظ مع المعاني داخل الاية او العبارة . وهذا الامر يتجاوز النكت البلاغية المحدودة المعزولة عن سياقها التي ارتضاها الرماني وجوها للاعجاز .فالنظرة التكاملية كانت موجودة عند الباقلاني في تحليل العمل الفني كله ، ملاحظة التحام الكلمة بالمعنى ، والعبارة بالمضمون ، والفكرة بالاسلوب ، لكنها تتوه في ركام الجدل المنطقي، وسيطرة من الافكار المسبقة(٤٩).

ولعل أهم ما يسترعي الناظر في دراسة الباقلاني في اعجاز القرآن، اعتباره للوحدة الفنية فيه، واشادته بقيمتها وبقدرتها على الابانة ، لذلك يرفض فكرة الاعجاز البلاغي التي تتعرض للتحليل الجزئي للعبارة،والبحث فيها عن ضروب البيان والبديع، ويرى ان اعجاز القرآن يرجع الى نظمه وبيانه، وذلك منصب على القرآن

جميعه بوصفه وحدة متكاملة جملة لا تفصيلا ، ويتضح هذا من تناوله بالتحليل سورة بتمامها يتدرج فيها ليظهر ما تنطوي عليه من خصائص ، فيحللها من ناحية النظم متعرضا لالفاظها ومعانيها ، وتآلف الالفاظ والمعاني في نظم رائع، وصلة الفاصلة بالنظم. ويقوم بتقريب معاني الصورة وشرح مواطن الجمال فيها ، ويكشف عما يخفى على القارئ العادي وبذلك يقوم بدور الوسيط بين النص وقارئه ، متمشيا مع الصورة من مطلعها ، متقلبا مع معانيها ، مختلفا بين فنون التعبير فيها(٥٠).

ولاشك ان هذا المنهج في التحليل هو الذي أكسب دراسة الباقلاني للاعجاز عمقا واصالة إذ لفت أنظار العلماء الى البحث عن منشأ جمال النظم القراني ،وجمال العمل الفني بصفة عامة، ونقل بحوث النقد من النقد الموضوعي الجزئي الى دائرة النقد الشامل العام، بعد ان سيطرت المعالجات الجزئية على العمل الفني ، من جراء المنهج اللغوي ، فظهر البيت الشاهد، او الاية القرانية التي تثبت قاعدة أو تنفي قاعدة، وضاعت النظرة الكلية الى العمل الفني ، فافتقد اخص مقوماته وأهم مميزاته(٥١) .

وادراك الباقلاني لسمة الوحدة في النظم القرآني يبرز بشكل واضح في تحليله لسور القرآن الكريم، ففي كل سورة وحدة موضوعية مترابطة ، وفي كل سورة بديع نظم وعجيب تأليف ، وسوف أقدم مثالاً لتحليلات الباقلاني التي تعكس مدى دقة تفكيره وتعمقه في مباحث البلاغة، فيقول : ثم وصل بذكر سورة موسى وانه رأى نارا فقال لاهله ((امكثوا اني انست نارا سآتيكم منها بخبر او اتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون))(٥٢)...ثم قال ((فلما جاءها نودي ان بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين))(٥٣). فانظر الى ما اجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء، وعظم شأن هذا الثناء ، وكيف انتظم مع الكلام الاول ، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الاخبار عن الربوبية ، وما دل به عليها قلب العصا حية، وجعلها دليلا عليه ومعجزة تهديه اليه.وانظر الى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن ، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة ، ثم ما شفع به هذه الاية ، وقرن به هذه الدلالة ، من اليد البيضاء – عن نور البرهان- من غير سوء . ثم انظر في أية آية وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف؟فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف اذا قارنتها اخواته ، وضامتها ذواتها مما تجري في الحسن مجراها ، وتأخذ في معناها(٥٤) .

وادراك الباقلاني يبرز في النمل التي تعكس ما قدمه من جهود بلاغية متقدمة لاظهار اعجاز القران وكشف اسراره ، ومواطن الجمال فيه، وبيان مخالفة اسلوبه لاساليب كلام العرب . ففي سورة النمل يبدأ الباقلاني تحليله بالدعوة الى تأمل السورة التي يذكر فيها النمل والنظر كلمة كلمة ، وفصل فصل هذا نموذج من تحليل الباقلاني لسور القران الكريم ، وهو يعكس موقفه من ثنائية اللفظ والمعنى ، فالاعجاز يكمن في حسن النظم مع ائتلاف الالفاظ والمعاني، فلا وجود للفظ الا بالمعنى، ولا وجود للمعنى الا باللفظ ، حيث ردد عبارات من مثل وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بانفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة.

لقد ادرك الباقلاني مكانة العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وقيمة اللفظ ودوره في التعبير ونظم الكلام وفي ابراز المعاني غير ان ما يأخذ عليه انه غالبا ما يترك آراءه حول اللفظ والمعنى دون تعليل علمي لها ، بل يحيل جل القضايا إلى الذوق والاحساس، فهو المعيار الصحيح في نظم الكلام.

خلاصة البحث

في ختام هذا البحث يمكن اجمال أهم الخلاصات والنتائج التي سبقت الاشارة اليها كما يلي:

اولا: ان كتاب الباقلاني (اعجاز القران) من اهم البحوث الرائدة حول قضية الاعجاز القراني، واثرها في ثنائية اللفظ والمعنى، اذ اسهم بدور اساسي في تحديد فكرة الاعجاز، وتطوير مفهومها ومناهج بحثها بصورة اثرت في كل من جاؤوا بعده من علماء البلاغة والدراسات القرانية.

ثانيا: لاشك ان كتاب الباقلاني، قد اسهم بدور اساسي في نشأة البحث البلاغي وإثرائه، اذ شكل مناخا مناسبا لنموه وتطوره، فارتبط الدرس البلاغي بالقران الكريم وخدمته وإثبات اعجازه. فالبلاغة هي الوسيلة التي عملت على ابراز ما في القران الكريم من وجوه الجمال، ومن خصائص اسلوبية كانت وما تزال التحدي ومناط الاعجاز.

ثالثا: الاعجاز عند الباقلاني في النظم والتأليف على طريقة مخصوصة، وليس شيئا خارجا عنه، وان الوجوه البلاغية ليست اصلا في الاعجاز، وانما تدخل في مقدماته من حيث انها دعامة في بناء الاسلوب او النظم الرفيع، والقران انما اعجز العرب بهذا الوصف دون ما سواه. فاعجاز القران ليس في وجوه البلاغة وحدها ، وانما يرجع الى عدد كبير من الخصائص .

رابعا: القضية الاساس التي شغل الباقلاني باثباتها علة امتداد كتابه هي انفراد القران باسلوب مباين لاساليب كلام العرب من ناحية تصرفه في تناول المعاني والتعبير عنها.

خامسا:ان قضية اللفظ والمعنى ،وطبيعة العلاقة القائمة بينهما ، من المسائل الكبرى التي استأثرت باهتمام الباقلاني، وارتبطت عنده بخدمة النص القراني والبحث عن مواطن الاعجاز فيه ، فقد ادرك ما للالفاظ من دور في صنع العبارة ، وما للمعاني من مكانة في التعبير، فلكل واحد منهما وظيفة يؤديها، لكن ليس منفردا، وانما باعتبار ارتباطه بالاخر، فهو من انتصار الصياغة اللفظية حسب ائتلاف المعاني مع الالفاظ. وهي نظرة لغوية جديدة ثاقبة في اتجاه لغوي جديد للربط بين اللغة والفكر.

سادسا:لم يلتزم الباقلاني في تصوره للعلاقة القائمة بين الالفاظ والمعاني بعقيدة الاشاعرة في كلام الله، تلك العقيدة التي كانت توجه موقفهم في بحثهم لهذه الثنائية للاعتناء بالمعاني بحكم سبقها واصالتها.اما الالفاظ فهي تابعة لها وهي تترتب في النطق حسب ترتيبها في النفس ،وعلى العكس من تلك فان الباقلاني قد تأثر بآراء الجاحظ والرماني فاولى الصورة السمعية للكلام عناية كبيرة، فالقران عنده معجز لانه جمع وجوه الحسن واسبابه من تعديل النظم وسلامته ، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان(٥٥) .

سابعا :حدد الباقلاني الاعجاز القراني في ثلاثة وجوه اساسية:

اولها : أخباره الصادق عن الغيوب، الامر الذي يخرج عن طوق البشر واستطاعتهم.

ثانيها: اخباره عن قصص الماضيين وسير الامم الخالية منذ عهد آدم عليه السلام.

ثالثها: نظمه البديع ، وتأليفه العجيب ،وبلاغته المتناهية التي يعجز البشر عن محاكاتها.

الهــوامـــش

١ـ وفيات الاعيان،ابن خلكان، مج٤ ، ص.٢٦٩

٢ـ شذرات الذهب،ج٣ ،ص١٦٩، مطبعة القدسي ،١٣٥٠هـ.

٣ـ وفيات الاعيان، ص٢٦٩.

٤ـ الاعلام ، للزركلي، ج٦،ص ١٧٦.

٥ـ وفيات الاعيان،لابن خلكان، مج٤،ص٢٦٩، وانظر ايضا قصته مع ملك الروم، تاريخ بغداد، مج٢،ص٢٧٩.

٦ـ انظر طبقات السبكي، ٢،:٢٥٧.

٧ـ وفيات الاعيان، ج١،ص ٢٦٩-٢٧٠، تاريخ بغداد،ج٥.

٨ـ اعجاز القران، للباقلاني،ج٣-٤، تحقيق: احمد صقر.

٩ـ بحث قضية الاعجاز القراني واثرها في ثنائية اللفظ والمعنى، مليكة حقان ، رسالة دكتوراه.

١٠ـ اعجاز القران ،للباقلاني،ص٢٥٠.

١١ـ المصدر السابق،ص٣٠.

١٢ـ المصدر السابق،ص١١١.

١٣ـ مثل: طسم، كهيعص، حم.

١٤ـ هي سورة غافر،اما سورة المؤمن(قد أفلح المؤمنون) وسميت غافر بسورة المؤمن لقوله تعالى في هذه السورة ((وقال رجل مؤمن من آل فرعون)).

١٥ـ المباحث البلاغية في ضوء قضية الاعجاز القراني ، نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري، د. احمد جمال العمرين مكتبة الخانجي ، القاهرة.

١٦ـ اعجاز القران،ص٢٥٤.

١٧ـ = = ص٢٧٦.

١٨ـ = =ص٣٥.

١٩ـ الحيوان ، للجاحظ ،ج٤،ص٨٩.

٢٠ـ الحيوان، للجاحظ، ج٢،ص٣٠.

٢١ـ بيان اعجاز القران ، للخطابي، ص٢٧.

٢٢ـ المصدرالسابق.

٢٣ـ اعجاز القران، للباقلاني، ص٣٥.

٢٤ـ لسان العرب، لابن منظور،(مادة نظم) ، ج١٢ ،ص٥٧٠.

٢٥ـ التعريفات، عبدالقاهر الجرجاني،(مادة نظم) ص٢٤٢.

٢٦ـ دلائل الاعجاز، عبدالقاهر الجرجاني،ص٤٩-٥٠،ط٢.

٢٧ـ الانصاف ، للباقلاني،ص٩٤.

٢٨ـ المصدر السابق،ص١٧٧-١٧٨.
٢٩ـ اعجاز القران،ص١٥٩.
٣٠ـ المصدر السابق،ص٣٥.
٣١ـ دلائل الاعجاز ،للجرجاني،ص٣٦.
٣٢ـ ائتلاف اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم ،بيئات المتكلمين والفلاسفة، الاخضر الجمعي،ص.٢٣٧
٣٣ـ دلائل الاعجاز،للجرجاني،ص٥٥-.٥٦
٣٤ـ اعجاز القران،للباقلاني،ص.٢٦
٣٥ـ = = = ص.٣٦
٣٦ـ = = = ص .٣٥
٣٧ـ البيان والتبيين، للجاحظ،ج١، ص.٣٨٣
٣٨ـ النكت في اعجاز القران ،الرماني، ص٧٥،ط.٤
٣٩ـ اعجاز القران، للباقلاني،ص.٣٥
٤٠ـ المصدر السابق.
٤١ـ التمهيد، للباقلاني،ص١٧٧-.١٧٨
٤٢ـ نظرية النظم بين المعتزلة والاشاعرة،د. احمد ابو زيد،ص.٣٥
٤٣ـ اعجاز القران،للباقلاني،ص .١١٧
٤٤ـ = = = ص.٤٢
٤٥ـ البيان والتبيين، للجاحظ، ج١ ،ص.١٤٤
٤٦ـ اعجاز القران، للباقلاني، ص٢٧٦-.٢٧٧
٤٧ـ = = =ص.٢٧
٤٨ـ البديع في ضوء اساليب القران، عبدالفتاح لاشين، ص٢١،ط.٣
٤٩ـ مناهج في تحليل النظم القراني، منير سلطان، ص٨٠-.٨١
٥٠ـ اثر القران في النقد العربي، محمد زغلول سلام، ص٢٨٧-.٢٨٨
٥١ـ مناهج في تحليل النظم القراني، منير سلطان، ص.٧٥
٥٢ـ سورة النمل، الاية .٧
٥٣ـ = = = .٨
٥٤ـ اعجاز القران ،للباقلاني، ص١٨٩-.١٩٠
٥٥ـ = = = ص٢٧٦-٢٧٧.

المصــادر

١- القران الكريم

٢- ائتلاف اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم بيئات المتكلمين والفلاسفة،الاخضر الجمعي، رسالة دكتوراه ، جامعة الجزائر ،.١٩٨٨

٣- أثر القران في النقد العربي القديم، محمد زغلول سلام،بدون طبعة.

٤- اعجاز القران، ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني،ج٣-٤، تحقيق: احمد صقر ، ط٥، دار المعارف ،مصر.

٥- الاعلام، للزركلي، ص١٧٦،ج٦، دار العلم للملايين، ط١٧،بيروت – لبنان،.٢٠٠٧

٦- الانصاف للباقلاني، تحقيق: محمد الزاهدين الحسن الكوفي، مكتبة نشر الثقافة الاسلامية،.١٩٥٠

٧- البديع في ضوء اساليب القران، عبدالفتاح لاشين، ط٣، مكتبة الانجلو المصرية، .١٩٨٦

٨- البيان والتبيين، ابو عمرو بن بحر الجاحظ، ج١، تحقيق:عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت- لبنان.١٩٩٠

٩- التعريفات، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق:جماعة من العلماء باشراف الناشر، ط١٥، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

١٠- التمهيد، للباقلاني، تحقيق:عماد الدين، احمد حيدر، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية ،.١٩٨٧

١١- الحيوان ،للجاحظ ،ج٢-٤، تحقيق:عبدالسلام محمد هارون، دار احياء التراث.

١٢- الطبقات، لتاج الدين السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناجي، وعبدالفتاح محمد الحلو، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ـ لبنان ،(د.ت) .

١٣ـ المباحث البلاغية في ضوء قضية الاعجاز القراني،نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري، د.احمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، القاهرة،(د.ت).

١٤- النكت في اعجاز القران،للرماني،ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القران، تحقيق:محمد خلف الله،ومحمد زغلول سلام، ط٤،دار المعارف، مصر،(د.ت).

١٥- بيان اعجاز القران،ابو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي، ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القران، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام،ط٤، دارالمعارف، مصر،(د.ت).

١٦- تاريخ بغداد، لابن النجار محب الدين محمد بن محمود البغدادي، تحقيق: قيصر أبو فرج ، مطبعة حيدر آباد الدكن ، ١٩٨٨.

١٧- دلائل الاعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩.

١٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الدمشقي، تحقيق: محمود الارناؤوط ، ط ١، دار أبن كثير للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق، ١٩٩٣.

١٩- قضية الاعجاز القراني واثرها في ثنائية اللفظ والمعنى خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، مليكة حقان، اطروحة دكتوراه، كلية الاداب، جامعة سيدي محمد بن عبدالله ، فاس، المغرب، ٢٠٠٤.

٢٠- لسان العرب، لابن منظور، ج١٢، دار صادر، بيروت- لبنان.

٢١- مناهج في تحليل النظم القراني، منير سلطان، منشأة المعارف الاسكندرية، مصر.

٢٢- نظرية النظم بين المعتزلة والاشاعرة، د.احمد ابو زيد، مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية، السنة الرابعة ، ١٩٨٨.

٢٣- وفيات الاعيان ، لابن خلكان، مج٤، دار صادر، بيروت- لبنان.